وقد عهد الى الأمير يوري شيمياكين بقيادة جيش من القوزاق والستريبيلتسي (حملة البنادق) والنبلاء الشباب ذي عدد كبير نقل في المراكب ونزل مع نهر الفولغا . وترددت في جوانب أمنا الفولغا أصداء الأغاني والأهازيج وإيقاع المجاذيف كما لو أن الرحلة كانت حفلة للمسرات . ولم تظهر مقاومة في أي مكان . وهربت حامية استراخان الشركسية ـ التترية فوراً وتمت ملاحقتها في كل الجهات . واستولى الروس على مرفأ بحر الخزر وعينوا واحداً من التتار لإدارته على شرط ان يكون للروس الحق في الصيد في كل اجزاء الفولغا بين قازان وبحر الخزر . وينبغي على سكان استراخان أيضاً أن يدفعوا جزية سنوية مقدارها الف إسترجون واربعون الف التين . وتم قبول كل ذلك وغدا دربيش التتري الذي تم اختياره قيصراً محلياً واول ذواقة لأفضل كافيار في العالم .

وصل خبر هذا الفتح لإيفان في الخامس والعشرين من آب اغسطس الذي يصادف عيد ميلاده . كان في دوامة العيد الذي يحتفل به مع اناستاسيا ومع البلاط والمتروبوليت فوصلت الأخبار السعيدة في اللحظة المناسبة . كان القيصر في الرابعة والعشرين وكانت روسيا تنمو وتكبر معه . واسترعى الحدث انظار العالم ، وسمعة إيفان التي لم تكن إلا اهلية محلية شاعت شهرتها سريعاً في الآفاق . وعلى الرغم من المصائب التي كانت تنصب عليه وعلى روسيا فإن ذلك العصر كان بلا مراء عصر ظفر وتوسع . وقد تبنى القيصر صيغة جديدة يبدأ بها مراسيمه وكتبه ... « في هذه السنة الخامسة والعشرين من حكمنا لروسيا ، الثالثة بعد قازان والأولى بعد استراخان » .

كانت الشمس تلمع مرة اخرى فوق إيفان . فالله الذي كان قد أخذ بدا يعيد من جديد . كان مظفراً في القضية المسيحية ، فقد خضعت له قازان خضوعاً تاماً وموسكو تتمتع بالسلام والرخاء ، وبدا أن المؤامرات والتحزبات قد فشلت أمام لطف إيفان ، فقد كان له علاقات طيبة مع ابن عمه فلاديمير الذي بدا انه عاد الى ولائه وإخلاصه ، واستمرت حياته